

٣ - أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ؟ !

المكاشفة «مفاعلة» من الكشف .. فهل هو قصد إلى رؤية المخلوق
للمخالق ، كما يرى الخالق المخلوق ، مع اختلاف في درجة الرؤية ؟ أو هو مجرد
تأكيد وبيان قوة المعرفة ؟
وإذا كان الأمر مقتصرًا على المعرفة فما حدود المعرفة هذه ؟ أهى معرفة
الذات أم الصفات ؟ أو هى مجرد وقوع تحت تأثير إدراك عام لقوة مكتملة
الصفات ، صدر عنها كل هذه الكائنات ؟
أحسب أن الأمر في كل ما ذهب إليه المفكرون لا يتجاوز (الإدراك العام)
للقدرة الإلهية ، فيتحول مع الحس الإنسانى إلى حلم أو وهم ، أو مزيج من
الحلم والوهم ، وقد يتحول مع قدر من الورع والتقوى إلى إحساس بالعجز .
ولعل هذا سر التباين الكبير في التعبير عن حقيقة « المعرفة » .
فأحيانًا نرى حجبًا كاملاً على مجرد السير في هذه الطريق ، يقول

ابن عبد البر - ت سنة ٤٦٣ هـ - إن الله ليس كمثله شيء ، فكيف يدرك
بقياس أو بإنعام نظر؟

ويروى ابن عرى حديثاً لرسول الله ﷺ : إن الله احتجب عن العقول ،
كما احتجب عن الأبصار ، وإن الملائكة الأعلى يطلبونه كما يطلبونه . .
ويقال : إن هذا من المسلمات الإنسانية ، فقد جاء في حكمة قدماء
المصريين : محال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به من لا يفنى . .
وفي هذا يقول الإمام الرازي :

نهاية إقدام العقول عقال

وأكثر سعي العالمين ضلال

ولم نستعد من بحشنا طول عمرنا

سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ومن أجل هذا حمل الفقهاء على رجال الكلام بعامة . . قال الإمام
أحمد : لا يفلح صاحب كلام أبداً ، ولا نكاد نرى أحداً نظرفي الكلام إلا
وفي قلبه دغل . . وقال الإمام مالك : أرايت إن جاءه من هو أجدل منه ،
أبدع دينه كل يوم لدين جديد؟

وأحياناً نرى أن مجرد محاولة إثبات وجود الله إنما هو انتفاص من جلاله
سبحانه ، لأنه متى خفي سبحانه حتى يحتاج إلى دليل يدل على وجوده ، على
مجرد وجوده ، إنه سبحانه أظهر من كل موجود^(١) .

(١) الأقوال مستقاة من (المقصد من الضلال) - ص ٢٦٧ و ٢٧٠ و ٢٢٠ و ٢٢٨ ومن الفترحات
ج ١ ص ٩٥ .

لكن ثمة فرقاً بين أن يكون ظاهر الوجود وأن يكون معروفاً حق المعرفة . .
وبخاصة إذا كان هذا الظهور بالصفات لا بالذات ، أو بالأثر لا بالمؤثر . .
سئل أبو سعيد الخراز عن المعرفة ، فقال : « المعرفة تأتي من وجهين : من
عين الجود ، وبذل المجهود » بمعنى أن العقل لا سلطان له ، إذ إن المعرفة رهن
بفضل من الله ، يؤتيه من يشاء على قدر استعداد « العارف » من الطهارة
النفسية والقرب من الله . .

قال أبو يزيد البسطامي : عرفت الله بالله ، وعرفت ما دون الله بنور الله . .
وقال أحمد بن مسروق : من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك عقله .
وقال ابن عري : المعرفة لا تنال بالنظر الفكري ، ولا بضرورات العقول ،
فلم يبق إلا أن يكون حصولها عن تجلّ إلهي في حضرة غيبية بمظهر من المظاهر .
وقال ابن ماعلا : جلّت الحقيقة أن تكون البشرية محلا لتلقيها ، ولكن إذا
أراد أن يوصلها إليك انبسط شعاع سلطان شعاعها ، فهد في قلبك محلا
لتلقيها ، فيها وجدتها ، لا بك :

أعارته طرفاً رآها به

فكان البصير بها طرفها

فكل دليل تستدل به على معرفة الله تعالى أنت أظهر منه ، لأن كل من كان
له باب مفتوح في صدره - كما يقول جلال الدين الرومي - يرى في كل ذرة
شمساً ، فليس العلم بكثرة الرواية - كما يقول الإمام مالك - إنما هو نور يضعه
الله تعالى في القلب^(٢) .

(٢) الأقوال السابقة من مصادر متعددة ، سبق ذكرها .

وقد أجمل هذه المعاني ناصر الدين أحرار بقوله : إن اللسان مرآة القلب ، والقلب مرآة الروح ، والروح مرآة الحقيقة الإنسانية ، والحقيقة الإنسانية مرآة الحق سبحانه ، والحقائق الغيبية تصل إلى اللسان من غيب الذات بقطع هذه المسافة البعيدة (٣) . .

وعلى هذا يمكن تفسير قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « سبحانه من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالمعجز عن معرفته » (٤) . فالمعرفة اللاتقة به سبحانه رهن بقوله : (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) (٥) . . فما دامت الأبصار لا تدركه ، وما دام « لطيفاً » ، فكل المحاولات لن تصل إلى الحقيقة الكاملة ، وإن حققت برد « اليقين » .

لكن الله سبحانه دعانا إلى « النظر في ملكوت السموات والأرض ، وفي أنفسنا » ، طلباً للمعرفة ، أو طلباً لليقين ، فكيف بنا نكتفي بمجرد الإحساس بالمعجز ؟

يقول إخوان الصفا : لما كان الإنسان مندوباً إلى معرفة ربه ، ولم يكن له طريق إلى معرفته إلا بعد معرفة نفسه ، كما قال الله تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه) ، أى جهل نفسه ، وكما قيل : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وقد قيل أيضاً : أعرفكم بنفسه أعرفكم بربه - وجب على كل عاقل طلب علم النفس ، ومعرفة جوهرها وتهذيبها ، وقد قال الله

(٣) المكتوبات ج ٢ ص ٣٣٧ .

(٤) اللع - ص ٥٧ .

(٥) سورة الأنعام : ١٠٣ .

تعالى : (ونفس وما سواها » فألهمها فجورها وتقواها » قد أفلح من زكاها ،
وقد خاب من دساها)^(٦) . .

والبحث في الذات الإنسانية وصولاً إلى اليقين لا يخرج عما عناه الإمام عليّ
حيث سئل : هل رأيت ربك حين عبده ؟ فقال : ويلك ، ما كنت أعبد رباً
لم أره . . قيل : وكيف رأيته ؟ قال : ويلك . لا تدركه العيون في مشاهدة
الأبصار ، ولكن رأته القلوب بمقتضى الإيمان^(٧) .

بل هو السبيل إلى الحقيقة الكاملة التي صورها « سيد الشهداء » في
مناجاته : « كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك ؟ أليكون لغيرك
من الظهور ما ليس لك ، حتى يكون هو المظهر لك ؟ متى غبت حتى تحتاج إلى
دليل يدل عليك ؟ ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك ؟
عميت عين لا تراك عليها رقيباً ، وخسرت صفقة عبد لم تجعل من حبك
نصيياً »^(٨) .

بل هو ما عبر عنه ابن عربي بقوله : « منا من جهل في علمه ، فقال :
« والعجز عن درك الإدراك إدراك » ، ومنا من علم فلم يقل مثل هذا ، وهو
أعلى القول ، بل أعطاه العلم السكوت ، ما أعطاه العجز ، وهذا هو أعلم عالم
بالله ، وليس هذا إلا لخاتم الرسل وخاتم الأولياء . . . ولا يراه أحد من الأولياء
إلا من مشكاة الولي الخاتم »^(٨) . .

وقد تأخذ من قول ابن عربي أن السبيل طهارة النفس بالعبادة ، وطهارة

(٦) رسائل إنعوان الصفا - ج ١ ص ٧٦ .

(٧) جامع السعادات للزقاق - الآداب بالنجف سنة ١٩٦٧ - ج ٣ ص ١٦٧ و ١٦٨ .

(٨) فصوص الحكم - ص ٦٢ .

الروح بدوام الذكر ، حتى تتحول المعرفة إلى « اتصال » ، وهذا ما أقره الإمام محمد عبده في حديثه عن « أرباب النفوس العالية والقلوب السامية » بأن « لهم مشاهد صحيحة في عالم « المثال » لا تنكر عليهم ، لتحقيق حقائقها في الواقع »^(٩) .

وقد يأخذ هذا الاتصال سبيل « الرؤيا » ، سواء في نوم أو يقظة ، (وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء)^(١٠) .

والنوم يرخي ستاراً ويزيح حجباً ، يقطع ما بين النائم وواقع الحياة ، لكنه لا يقطع ما بين النائم والحياة ، وقد يصل النائم بما وراء الواقع والحياة ، من أمور الغيب ، بدليل رؤيا يوسف عليه السلام ، ورؤيا السجينين ، ورؤيا الملك ، كما جاء في [سورة يوسف] .

ومادام « الاتصال » بالغيب قد يتم في حالة « إنسانية » بتخلص فيها الإنسان من قيود مادية ، فالعقل لا يستبعد أن يتم هذا « الاتصال » إذا تغلب الوجود الروحي على الوجود المادي في حالة « صحو » ، مع الاستشراق إلى عالم ما وراء المادة ، والاستفراق في تأمله ، والتسامي إليه .

ولا يعني هذا التعرف إلى ذات الله ، ولكن الإحساس الكبير (بالحضور) الإلهي ، وهو « حضور » لا يخرج عن « الإنسان » ذاته ، بمعنى أنه يختلف من إنسان إلى آخر ، باختلاف « الاستعداد » .

وهذا ما بسطه الإمام الغزالي بقوله : « الرؤية حق ، بشرط ألا يفهم من

(٩) رسالة التوحيد - ص ١٠٠ و ١٠١ .

(١٠) سورة الشورى - ٥١ .

الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان ، فإن ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علوًا كبيرًا^(١١) . فالرؤية ليست إلا تعبيراً عن كمال المعرفة .

وه المعرفة إنما تكمل وتكثر وتوسع في العمر الطويل بمداومة الفكر ، والمواظبة على المجاهدة ، والانقطاع من علائق الدنيا ، والتجرد للطلب ، ويستدعى ذلك زماناً لا محالة^(١٢) . حتى يتم صقل المرآة التي تعكس صورة الحقيقة الكاملة .

وه كما أن الخفاش يبصر بالليل ولا يبصر بالنهار ، لا لخباء النهار واستتاره ، لكن لشدة ظهوره ، فإن بصر الخفاش ضعيف ، يبهره نور الشمس إذا أشرقت ، فتكون قوة ظهوره - مع ضعف بصره - سبباً لامتناع إبصاره فلا يرى شيئاً إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره - فكذلك عقولنا ضعيفة ، وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستتارة ، وفي غاية الاستغراق والشمول ، حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض ، فصار ظهوره سبب خفائه ، فبحان من احتجب بإشراق نوره ، واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ، ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور ، فإن الأشياء تستبان بأضدادها ، وما عم وجوده - حتى إنه لا ضد له - عسى إدراكه ، فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة عن قرب ، ولما اشتركت في الدلالة على نقي واحد أشكل الأمر^(١٣) . .

(١١) إحياء علوم الدين - ج ٤ ص ٣١٣ و ٣١٥ .

(١٢) إحياء علوم الدين - ج ٤ ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

« وأما من قويت بصيرته ولم تضعف مته ، فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ، ولا يعرف غيره ، يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله ، وأفعاله أثر من آثار قدرته ، فهي تابعة له ، فلا وجود لها بالحقيقة دونه ، وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ، ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ، ويذهل عن الفعل ، من حيث إنه سماء وأرض وحيوان وشجر . . إلخ .

ثم إن المدركات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند فقد العقل ، ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا ، وهو مستغرق المهم بشهوته ، وقد أنس بمدركاته ومحسوساته ، وألفها ، فسقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ، ولذلك إذا رأى - على سبيل المفاجأة - حيواناً غريباً ، أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقاً للعادة عجيباً ، انطلق لسانه بالمعرفة ، طبعاً ، فقال : « سبحان الله » . . وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة ، وكلها شواهد قاطعة لا يحس بشهادتها لطول الأنس بها ، ولو فرض أن أكمه بلغ عاقلا ، ثم انشقت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل المفاجأة ، لحيف على عقله أن ينبر ، لعظم تعجبه من شهادة هذه العجائب لخالقها » (١٢) .

وهذا التصوير النفسى الدقيق يصح « الحضور » حضور « وجود » ، لا حضور « ذات » ، ولهذا احتاج « العارف » إلى معاناة ، للتخلص من « علائق الدنيا والتجرد للطلب » . .

لما سئل رسول الله - ﷺ - عن « الشرح » ومعناه في قوله تعال : (فمن

(١٢) إحياء علوم الدين ج ٤ ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام^(١٣) - قال : « وهو نور يقذفه الله تعالى في القلب » ، فقيل : وما علامته ؟ قال : « التجافى عن دار الغرور ، والإجابة إلى دار الخلود » ، وهو الذى قال فيه عليه الصلاة والسلام : « إن الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رشَّ عليه من نوره » ، فمن ذلك النور ينبغى أن يطلب الكشف . . . وذلك النور ينبجس من الجود الإلهى في بعض الأحيان ، ويجب التردد له ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ، ألا فتعرضوا لها »^(١٤) .

وقد حاول ابن عربى استيعاء هذا « النور » الذى كشف الله به « الظلمة » ، فجمع بينها في محاولة لتصوير الطريق إلى الله ، مستهدياً بالآية الكرمة : (ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ، ولو شاء لجعله ساكناً ، ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً)^(١٥) - فقال رحمه الله : « باسم النور وقع الإدراك ، وامتد هذا الظل على أعيان الممكنات في صورة الغيب المجهول ، ألا ترى الظلال تضرب إلى السواد ، تشير إلى ما فيها من الخفاء ، لبعد المناسبة بينها وبين أشخاص من هى ظل له ؟ . . . فما يعلم من العالم إلا قدر ما يعلم من الظلال ، ويجهل من الحق على قدر ما يجهل من الشخص الذى عنه كان ذلك الظل ، فمن حيث هو ظل له لا يعلم ، ومن حيث ما يجهل ما فى ذات الظل من صورة شخص من امتد عنه يجهل من الحق ، فلذلك تقول : إن الحق معلوم لنا من وجه ، مجهول لنا من وجه (ألم تر إلى ربك كيف مد

(١٣) سورة الأنعام - ١٢٥ .

(١٤) المقلد من الضلال - ص ٧٥ و ٧٦ .

(١٥) سورة الفرقان - ٤٥ و ٤٦ .

الظل ، ولو شاء لجعله ساكنًا) ؟ أى يكون فيه بالقوة ، يقول : ما كان الحق ليتجلى للممكنات حتى يظهر الظل ، فيكون كما بقى من الممكنات التى ما ظهر لها عين فى الوجود ، (ثم جعلنا الشمس عليه دليلًا) ، وهو اسمه النور الذى قلناه ، ويشهد له الحس ، فإن الظلال لا يكون لها عين بعدم النور ، (ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا) ، وإنما قبضه إليه لأنه ظله ، فنه ظهر ، وإليه يرجع الأمر كله .

لما أوجد الحق الظلال ، وجعلها ساجدة متفينة عن اليمين والشمال ، إلا دلائل لك عليك وعليه ، لتعرف من أنت ، وما نسبتك إليه ، وما نسبته إليك ، حتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة إلهية اتصف ما سوى الله بالفقر الكلى إلى الله ، وبالفقر النسبى بافتقار بعضه إلى بعض ، وحتى تعلم من أين ، أو من أى حقيقة اتصف الحق بالغناء عن الناس ، والغناء عن العالمين ، واتصف العالم بالغناء ، أو بغناء بعضه عن بعض من وجه ما هو عين ما افتقر إلى بعضه به .^(١٦) . .

والإحساس بالافتقار إحساس بالعجز . . ولكن حين يقوى الإنسان على حاجاته المادية ، ويعيش لما هو أسمى ، متنورًا بالنور الإلهى ، فقد يصبح فى حالة « اللا إنسان » ، فإذا عبر عن هذه الحالة عبر بما لم تألف ، وما يخالف « قيمنا » المعتادة ، ومن ثم يناله منا التكفير والقتل والتشيل !!

* * *

ومن عجيب الأمر أن المفكرين الإسلاميين - من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ، كما اعتاد المحدثون أن يقولوا - متفقون على ظاهرة « التسامى » وكال

(١٦) فصوص الحكم - ص ١٠٥/١٠٢ .

المعرفة » ، متفقون على مشروعية « الاتصال » و « الرؤية » . . فابن تيمية -
الذى حمل « السيف » في وجه الحلاج وابن عربي ومن نحا نحوهما -
يقول : « إنها مشاهدة قلبية ، تغلب عليه حتى تفتيه عن الشعور بحواسه ، فيظنها
رؤية بعينه » (١٧) . . ويضيف : « فأحدهم قد يذكر الله حتى يغلبه على قلبه
ذكر الله ، ويستغرق في ذلك ، فلا يبقى له مذكور مشهود لقلبه إلا الله ، ويفنى
ذكره وشهوده لما سواه ، فيتوهم أن الأشياء قد فُتيت ، وأن نفسه فُتيت ، حتى
يتوهم أنه هو الله ، وأن الوجود هو الله » (١٨) . .

ويقدم الدليل من واقع القول المأثور : « كما في الصحيحين ، عن
النبي - ﷺ - أنه قال : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي
أحد فعمر » . . وكان عمر يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين ، واسمعوا منهم
ما يقولون ، فإنها تجلي لهم أمور صادقة . . وفي الترمذي ، عن أبي سعيد ، عن
النبي - ﷺ - أنه قال : « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » ، ثم قرأ :
(إن في ذلك لآيات للمتوسمين) . وقال بعض الصحابة : أظنه - والله -
للحق يقذفه الله على قلوبهم وأسماعهم وفي صحيح البخاري ، عن أبي هريرة ،
عن النبي - ﷺ - أنه قال : « ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى
أحبه ، فإذا أحبته ، كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده
التي يبطش بها ، ورجله التي يمشى بها » ، وفي رواية : « فبى يسمع ، وبى
يبصر ، وبى يبطش ، وبى يمشى » ، فقد أخبر أنه يسمع بالحق ويبصر به . .
وكانوا يقولون : إن السكينة تنطق على لسان عمر رضى الله عنه ، وقال

(١٧) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ١ ص ٢٩٠ .

(١٨) المصدر السابق - ج ١ ص ١٥٠ .

ﷺ : « من سأل القضاء واستعان عليه وكل إليه ، ومن لم يسأله ولم يستعن عليه أنزل الله عليه ملكاً يسدده » ، وقال الله تعالى : (نور على نور) ، نور الإيمان مع نور القرآن ، وقال تعالى : (أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه) ، وهو المؤمن على بينة من ربه ، ويتبعه شاهد من الله ، وهو القرآن ، شهد الله في القرآن بمثل ما عليه المؤمن من بينة الإيمان ، وهذا القدر مما أقر به حذاق النظار لما تكلموا في وجوب النظر وتحصيل العلم ، فقليل لهم : أهل التصفية والرياضة والعبادة والتأله يحصل لهم المعارف والعلوم اليقينية بدون النظر .

وهذا أقر به حذاق النظار ، متقدمهم كالكنيا الهراس والغزالي وغيرهما ، ومتأخريهم كالرازي والآمدي ، وقالوا : نحن لا ننكر أن يحصل لناس علم ضروري بما يحصل لنا بالنظر» (١٩) .

ومع هذا ، فإنه يعود ليحمل على « القوم » بدون دليل ، أو بدليل أقرب إلى الافتراء . . يقول : « وأصحاب الحلاج لما قتل كان يأتهم من يقول : أنا الحلاج ، فيرونه على صورته عياناً ، وكذلك شيخ بمصر يقال له الدسوقي ، بعد أن مات ، كان يأتى أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة ، وأرأى صادق من أصحابه الكتاب الذى أرسله ، فرأى به بخط الجن ، وقد رأيت خط الجن غير مرة ، وفيه كلام من كلام الجن » (٢٠) .

ولا أحد يدري كيف عرف أنه خط الجن ، وإذا كانت الجن من عالم غير مرنى ، فإن الاعتراف بمراسلتهم لا يبنى المراسلة مع غيرهم .

(١٩) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ١ ص ٥١ و ٥٣ .

(٢٠) مجموعة الرسائل الكبرى - ج ١ ص ٧٢ .

والشيخ التراقي - أحد أعلام الشيعة - يقول : فكما لا تجوز رؤية الله سبحانه في الدنيا بالعين والبصر ، فكذلك لا تجوز في الآخرة ، وكما تجوز رؤيته بالعقل والبصيرة لأهل البصائر - أعنى غاية الانكشاف والوضوح ، بحيث تنادى إلى المشاهدة واللقاء - فكذلك تجوز رؤيته في الآخرة بهذا المعنى ، والحجاب بينه وبين خلقه ليس إلا الجهل وقلة المعرفة ، دون الجسد^(٢١) . .
ومتهدى إلى العامل النفسى عن طريق بيانه آداب قراءة القرآن ، إذ يقول :
درجات القراءة ثلاث :

الأولى ، وهى أدناها ، أن يقدر العبد أنه يقرؤه على الله تعالى ، واقفًا بين يديه ، وهو ينظر إليه ، ومستمع منه ، فتكون حاله - على هذا التقدير - المثلث والسؤال والتضرع والابتهال . .

الثانية : أن يشهد بقلبه كأن ربه يخاطبه بالطفاه ، ويناجيه بإحسانه وإنعامه ، فقامه الهية والحياء والتعظيم والإصغاء . .

الثالثة : أن يرى فى الكلام المتكلم ، وفى الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه وإلى تلاوته ، ولا إلى تعلق الإنعام به ، من حيث إنه منعم عليه ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم من غيره ، وهذه درجة المقربين والصدّيقين^(٢٢) . .

وهذه الدرجة عبّر عنها إخوان الصفا - الذين يمثلون الفكر المادى والفلسفى إلى حد ما - بقولهم : إنهم يرونه رؤية الحق فى جميع تصرفاتهم ، ويشاهدونه فى كل حالاتهم ، لا يسمعون إلا منه ، ولا ينظرون إلا إليه ، ولا يرون غيره على

(٢١) جامع السعادات - ج ٣ ص ١٦٦ ولا نسلم بما جاء به .

(٢٢) جامع السعادات - ج ٣ ص ٣٧٦ .

الحقيقة ، فمن أجل ذلك انقطعوا إليه عن الخلق ، واشتغلوا بالخالق عن المخلوق (٢٣) .

ويستشهد إخوان الصفا بقول أرسططاليس : إني ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى ، وصرت كأنى جوهر مجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، خارجا عن جميع الأشياء ، فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء ما أبقى له متعجبا باهتا ، فأعلم أنى جزء من أجزاء العالم الأعلى الفاضل الشريف (٢٤) . . .

ولا يبعد عن هذا ما ذهب إليه السهروردى - وهو من العلماء الذين ندبوا أنفسهم لصحية المتصوفة ، وتسجيل أقوالهم وأخبارهم ، بقوله : « من كلام بعض المحققين مخاطبات وردت عليهم بعد طول معاملات لهم ظاهرة وباطنة ، وتمسكهم بأصول القوم من صدق التقوى ، وكمال الزهد فى الدنيا ، فلما صفت أسرارهم تشكلت فى سرائرهم مخاطبات موافقة للكتاب والسنة ، فتزلت بهم تلك المخاطبات عند استغراق السرائر ، ولا يكون ذلك كلاما يسمعون ، بل كحديث فى النفس ، يجدونه برؤية موافقا للكتاب والسنة ، مفهوما عند أهله ، موافقا للعلم ، ويكون ذلك مناجاة لسرائرهم ، ومناجاة سرائرهم إياهم ، فيثبتون لأنفسهم مقام العبودية ، ولمولاهم الربوبية ، فيضيفون ما يجدونه إلى أنفسهم وإلى مولاهم ، وهم مع ذلك عالمون بأن ذلك ليس كلام الله ، إنما هو علم حادث أحدثه الله فى بواطنهم » (٢٥) . .

ومن هؤلاء القوم من « إذا صفا باطنه قد يغيب فى الذكر من كمال أنسه ،

(٢٣) رسائل إخوان الصفا - ج ١ ص ٣٧٦ .

(٢٤) المصدر السابق - ج ١ ص ١٣٨ .

(٢٥) عوارف المعارف - ص ٨٠ .

وحلاوة ذكره حتى يلتحق في غيبته في الذكر بالنائم ، وقد تجلّى له الحقائق في لبسة الخيال أولاً ، كما تنكشف الحقائق للنائم في لبسة الخيال . . ولبسة الخيال الذى هو بمثابة الجسد مثال انبعث من نفس الرأى في المقام ، من استصحاب القوة الوهمية والخيالية من البقطة .

وقد تجرد للذاكر الحقائق من غير لبسة المثال ، فيكون ذلك كشفًا وإخبارًا من الله تعالى إياه ، ويكون ذلك تارة بالرؤية ، وتارة بالسماع ، وقد يسمع من باطنه ، وقد يطرق ذلك من الهواء ، لا من باطنه ، كالهوائف ، يعلم بذلك أمرًا يريد الله إحداثه له أو لغيره ، فيكون إخبار الله إياه بذلك مزيدًا ليقينه ، أو يرى في المنام حقيقة الشيء » (٢٦) . .

ويؤيد هذا التصوير قول الإمام القشيري : « وتحقين الرؤيا خواطر ترد على القلب ، وأحوال تتصور في الوهم ، إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار ، فيتوهم الإنسان عند البقطة أنه كان رؤية في الحقيقة . . وإنما كان ذلك تصورًا وأوهامًا للخلق تقررّت في قلوبهم ، وحين زال عنهم الإحساس الظاهر تجردت تلك الأوهام عن المعلومات بالحس والضرورة ، ففوت تلك الحالة عند صاحبها ، فإذا استيقظ ضعفت تلك الأحوال التي تصورها ، بالإضافة إلى حال إحساسه بالمشاهدات ، وحصول العلوم الضرورية ، ومثاله : كالذى يكون في ضوء السراج ، فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس ، فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المستيقظ كمن تعالى عليه النهار ، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصورًا له في حال نومه » (٢٧) . .

(٢٦) المصدر السابق - ص ٢١٦/٢١٧ وانظر الفتوحات ج ٤ ص ٣٧٦ .

(٢٧) الرسالة القشيرية - ج ٢ ص ٧١٥ .

وكما سبق القول : ما يحدث في النوم يمكن أن يحدث في اليقظة ، إذا وصل المرء إلى الحد الفاصل بين المادة والروح ، أو قل إذا سما المرء على غرائزه وعاداته ، وقوى اتصاله بخالقه ، عند ذلك يتخلص المرء من الواقع الذي يعيشه ، بل من الوجود المادى كله ، ويصبح في عالم الروح ، أو قل عالم الوهم ، وه بالوهم يخلق كل إنسان في قوة خياله مالا وجود له إلا فيها ^(٢٨) ، كما يقول ابن عربى

فوقنا يكون العبد ربًّا بلا شك
ووقتًا يكون العبد عبدًا بلا إفك
فإن كان عبدًا كان بالحق واسعًا
وإن كان ربًّا كان في عيشة ضنك
فمن كونه عبدًا يرى عين نفسه
وتسع الآمال منه بلا شك
ومن كونه ربًّا يرى الخلق كله
يطالبه من حضرة المُلْك والمَلِك
ويعجز عما طالبوه بذاته
لذلك بعض العارفين به يبكى ^(٢٨)

(٢٨) فصوص الحكم - ص ٨٨ و ٩٠ وانظر الفتوحات - ج ٢ ص ٣٢٥ .

وقد نفهم من شعرا ابن عربى أنه كلما ازدادت النفس غنى ازدادت أعباؤها ، لكننا نفهم - فى الوقت نفسه - أن رحلتنا داخل النفس هى رحلتنا خارج النفس ، فالنفس مرآة الكون ، أو قل : إن المراتى الكونية تتشكل فى النفس على وفق انفعالاتها ، وقد تهم النفس مالا تحسه ، وقد يلتبس الحس بالخيال ، وقد يقوى الحس بما لا نجرؤ على التعبير عنه . .

رفع إلى أبى صالح عبد القادر الجيللى رجل ادعى أنه رأى الله عز وجل بعينى رأسه ، فقال : أحق ما يقولون عنك ؟ قال : نعم . . فانتهره ونهاه عن هذا القول ، وأخذ عليه ألا يعود إليه . . فقبل للشيخ : أحق هو أم مبطل ؟ فقال : هذا محقّ ملتبس عليه ، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال ، فظن أن بصره رأى ما شاهده ببصيرته ، وإنما رأى بصره ببصيرته فقط ، وهو لا يدرى ، قال الله تعالى : (مرج البحرين يلتقيان ، بينهما برزخ لا يبغيان) (٢٩) .

تعبير دقيق يمثل أن حالة الاستغراق فى الشئ يحسده ، لأنه ينسلخ عن عالمه ، ويعيش عالم محبوه الذى أخذ عليه الحس والفكر والوجدان ، « مثل من يحكم برؤية صورة زيد فى المرآة . . هذا الحكم غير مطابق للواقع ، فإنه لم يرفى المرآة صورة زيد أصلا ، لأنه لا صورة فى المرآة قطعاً حتى ترى ، ولا يقال لهذا الشخص فى العرف أنه كاذب ، وإن لم يكن مطابقاً لنفس الأمر ، فهو معذور فى هذا الحكم ، وعلامة الكذب مرتفعة عنه » (٣٠) . . و « كثيراً ما يستتر عن نظر المحب غير محبوه ، بواسطة استيلاء حب محبوه عليه ، فلا يرى غير محبوه ، لا أنه ليس فى نفس الأمر غير محبوه ، فإنه يخالف لحكم الحس

(٢٩) الطبقات الكبرى - ج ١ ص ١٢٧ .

(٣٠) المكتوبات - ج ١ ص ٤٤ .

والعقل والشرع ، وتصير هذه المحبة أحياناً باعثة على الحكم بالإحاطة والقرب الذاتيين» (٣١) . . ومن ثم يكون «اليقين الوجداني أنهم يرونه جل شأنه ، ويعبدون في أنفسهم الالتذاذ المترئس على الرؤية على وجه الكمال ، ولكن المرئى لا يكون مدركاً لهم أصلاً ، ولا يحصل لهم شيء منه قطعاً غير وجدان الرؤية ، وغير الالتذاذ به» (٣٢) . .

ومن هنا كان الحكم بعجز العقل ، إذ الأمر مجرد ذوق وحس ووجدان . . قال رجل للتورى : ما الدليل على الله ؟ قال : الله . قال : فما العقل ؟ قال : العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله .

وقال ابن عطاء : العقل آلة العبودية ، لا للإشراف على الربوبية (٣٣) . . فعلى الذين يسارعون بالكفر أن يضعوا هذا الواقع فى حسابهم ، وإلا ، فإذا كان الأمر مجرد منطق جدلى فقد جوز القوم الرؤية بالعقل ، وأوجبوها بالسمع - بالإضافة إلى ما عطينا بتفصيله - فقالوا : «إنما جاز فى العقل ، لأنه موجود ، وكل موجود فجاثر رؤيته ، إذا وضع الله تعالى فىنا الرؤية له ، ولو لم تكن الرؤية جائزة عليه لكان سؤال موسى عليه السلام : (أرى أنظر إليك) (٣٤) جهلاً وكفراً . . ولما علق الله تعالى الرؤية بشرطة استقرار الجبل بقوله : (فإن استقر مكانه فسوف تراني) (٣٤) - وكان ممكناً فى العقل استقراره

(٣١) المكتوبات - ج ١ ص ٤٣ .

(٣٢) المصدر السابق - ج ٣ ص ٦٠ .

(٣٣) التعرف للمذهب أهل التصوف - الكلا باذى - مكتبة الكليات الأزهرية سنة ١٩٦٩ ص ٧٨

و ٧٩ .

(٣٤) سورة الأعراف - ١٤٣ .

لو أقره الله - وجب أن تكون الرؤية المعلقة به جائزة في العقل ، ممكنة . . فإذا ثبت جوازه في العقل ، ثم جاء السمع بوجوبه ، بقوله : (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) (٣٥) . . وقوله : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (٣٦) . . وقوله : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ) (٣٧) ، وجاءت الرواية بأنها الرؤية ، وقال النبي ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، لا تضامون في رؤيته يوم القيامة » ، والأخبار في هذا مشهورة متواترة - وجب القول به ، والإيمان والتصديق له (٣٨) .

ومع هذا نقول : إن قدم الاستدلاليين خشبية ، والقدم الخشبية واهنة جداً . . كما قال جلال الدين الرومي ، لأنه - في رأى ابن عربى - « لو كان هذا العلم الذى أعطاه التفكير في الله نوراً ما طرأ على المحل ظلمة شبيهة ، ولا ظلمة تشكيك أصلاً ، وقد طرأت ، والظلمة ليس من شأنها أن تنفر النور ، ولا لها سلطان عليه ، وإنما السلطان للنور المنفرد الظلم ، فدل ذلك على أن علوم المتكلمين في ذات الله والخاضعين فيه ليست أنواراً ، وهم يتخيلون - قبل ورود الشبهة - أنهم في نور ، وعلى بينة من ربهم في ذلك ، فلا يبدو لهم نقصهم حتى ترد عليهم الشبهة ، وما يدريك لعل تلك الشبهة التى يزعمون أنها شبهة هى الحق والعلم . . ثم إنه ما من مذهب إلا وله أئمة يقومون به ، وهم فيه مختلفون ، وإن اتصفوا جميعهم مثلاً بالأشاعة ، فيذهب أبو المعالى خلاف ما ذهب إليه

(٣٥) سورة القيامة - ٢٢ و ٢٣ .

(٣٦) سورة المطففين - ١٥ .

(٣٧) سورة يونس - ٢٦ .

(٣٨) التعرف للمذهب أهل التصوف - ص ٥٧ .

القاضي ، ويذهب القاضي إلى مذهب يخالف فيه الأستاذ ، وبذهب الأستاذ إلى مذهب في مسألة يخالف فيها الشيخ ، والكل يدعى أنه أشعري ، وكذلك المعتزلة ، وكذلك الفلاسفة في مقالاتهم في الله ، وفيما ينبغي أن يعتقد ، ولا يزالون مختلفين ، مع كون كل طائفة يجمعها مقام واحد ، واسم واحد^(٣٩) .